ماجد ملحم

ماذا لو؟

رواية

الطبعة الأولى
2025

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

ماذا لو؟

رواية

ماجد ملحم

الطبعة الأولى
2025م

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

ماذا لو؟

ملحم، ماجد
ماذا لو، رواية
ط 1 - 2025م
نسخة إليكترونية
الطبعة الأولى
2025م

Majed Mulhem
What If, a Novel
st Edition – 20251
Electronic Version
First Printing
2025

جميع الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تُعبر فقط عن آراء المؤلف،
ولا تُعبر بالضرورة عن آراء مكتبة الكتاب العربي.
جميع حقوق النشر والتصميم محفوظة، ولا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

وسائل التواصل مع المكتبة:
البريد الالكتروني: info@arabbook.com
موقع المكتبة: https://www.arabbook.com

All opinions and ideas expressed in this book reflect solely the views of the author and do not necessarily represent the views of ArabBook.com.
All rights to publishing and design are reserved. Reproduction of this book, in whole or in part, or storing it in any retrieval system, or transmitting it in any form or by any means, is strictly prohibited without prior permission from the publisher.

Email: info@arabbook.com
https://www.arabbook.com

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي

1447هـ - 2025م

ماذا لو... لم يدعُها ذلك اليوم على فنجان قهوة؟

هل كان ذلك أسوأ قرارٍ له؟ أم لها؟

أم أن الحياة، بخبثها الجميل، كانت ستجد طريقًا آخر لتجمع بينهما ثم تفرّقهما بنفس الدقة؟

كانت المسافة بيني وبينها تشبه فنجان قهوةٍ باردةٍ تُرك على الطاولة أكثر مما يجب.

لكن شيئًا ما، كعادة الصدف التي لا نتحكم بها، دفعني لأكتب لها تلك الجملة البسيطة:

"هل تشربين القهوة هذا المساء؟"

لم أفكر كثيرًا، ولم أكن أعلم أن تلك الرسالة الصغيرة ستفتح بابًا لا يُغلق،

بابًا سيُدخلني في أكثر الحروب هدوءًا — الحرب مع نفسي.

كنت أجلس في شرفة غرفتي المطلة على البحر في طرطوس،

المدينة التي تشبه هدنةً مؤقتة بعد كل تعب،

مدينة تضع الكفَّ على الجرح وتقول لك: "اهدأ... ما زال هناك وقت لتفهم".

لكنني لم أكن أبحث عن الفهم حينها، كنت أبحث عن صوتٍ بشريٍّ يذكّرني أنني ما زلت موجودًا.

الكتابة هجرتني منذ عام.

القلم اليابس على الطاولة بدا كعكازٍ قديمٍ لروحٍ أنهكها المشي في طرقٍ لا تؤدي إلى أحد.

كنت أظن أنني تركت الكتابة، لكن الحقيقة أنها هي التي تركتني حين صرت أكتب لأهرب لا لأعيش.

أحيانًا أفكر أن الكتابة مثل البحر:

إذا دخلتها خائفًا، ابتلعتك،

وإذا دخلتها عاشقًا، ابتلعتك أيضًا،

لكن بطريقةٍ أجمل.

حين وصل ردها القصير — "لمَ لا؟— "

شعرت كمن ارتكب خطأً يعرف تمامًا أنه سيؤلمه، ومع ذلك يمضي نحوه كأنه خلاصه الأخير.

في مساء ذلك اليوم، جلست في المقهى القريب من الميناء، المكان الذي اعتدت أن أكتب فيه،

لكنني لم أكتب شيئًا منذ رحيلها.

الكرسي الخشبي ما زال يحتفظ بانحناءة جسدها،

والنافذة التي كانت تجلس بجانبها ما زالت تطل على البحر ذاته،

بحرٌ يعرف قصتنا أكثر منّا،

بحرٌ شاهد على كل الصمت الذي لم نقله.

حين جاءت، كانت تشبه أول حرف كتبته في حياتي: مترددة، لكنها حقيقية.

في عينيها رأيت السؤال الذي كنت أهرب منه دائمًا:

هل نلتقي لأننا نريد، أم لأن الحياة قررت أن تختبرنا؟

كانت تضحك بخفةٍ لم أرها منذ زمن،

تضع خصلات شعرها خلف أذنها كما كانت تفعل حين تخجل،

وتنظر إليّ نظرةً فيها شيء من الماضي وشيء من وداعٍ مبكر.

قلت لها وأنا أحاول أن أبدو هادئًا:

"لم تتغيري كثيرًا".

فأجابت بابتسامةٍ فيها مرارة:

"بل تغيّرت أنت، فقط لا تراك كما كنت".

منذ تلك اللحظة، بدأ الحوار الحقيقي — لا بيني وبينها، بل بيني وبداخلي.

صوتان يسكنان رأسي منذ سنوات:

واحدٌ يكتب، وآخرُ يمحو.

واحدٌ يقول إن ما حدث كان حتميًا،

وآخرُ يهمس: كان يمكن أن يكون أقل وجعًا لو أنك لم تدعُها لذلك الفنجان.

أحيانًا أتخيل نفسي في تلك اللحظة لو أنني لم أرسل الرسالة.

ربما كنت سأظل أعيش حياةً هادئة، بلا قهوة ولا فوضى ولا كتابة.

لكن هل كنت سأعيش حقًا؟

أم أنني كنت سأبقى مجرّد ظلٍّ لرجلٍ لم يختبر نفسه بعد؟

في تلك الليلة، بعد أن افترقنا، عدت إلى غرفتي.

البحر كان صامتًا، كأنه شاركني الفقد بصمته.

فتحت دفتري القديم، ذاك الذي تركت عليه بقعة قهوةٍ باهتة.

ابتسمت — نفس البقعة التي تركتها هي في آخر لقاءٍ لنا.

كأنها كانت توقّع وجودها في كل تفاصيل غيابي.

كتبت على الصفحة الأولى بخطٍّ مرتجف:

"ماذا لو لم أدعُها؟ هل كنت سأكتب؟ أم كنت سأعيش؟"

ثم نظرت إلى المرآة أمامي.

رأيت وجهًا أعرفه ولا أعرفه،

وجهًا يشبه صفحةً لم تُكتب بعد،

لكنّ كل تجعيدةٍ فيه كانت سطرًا من روايةٍ لم أجرؤ على إنهائها.

قال صوتي الداخلي:

"لقد أخطأت".

فأجاب الصوت الآخر، بصوتٍ ساخرٍ هادئ:

"أخطأت؟ كلمة متأخرة جدًا يا صديقي. أنت لا تندم إلا بعد أن تكتب،

وكأن الكتابة صلاة التائبين الذين لا يجرؤون على الكلام".

ضحكت بخفوتٍ كمن يعترف دون قاضٍ.

كم هو مرهق أن تتحدث إلى نفسك وتعلم أنك لن تُقنع أحدًا — حتى نفسك.

أشعلت سيجارةً لم أشعلها فعليًا، فقط تخيّلتها.

الدخان كان وهمًا، مثلي تمامًا.

كل ما تبقّى في حياتي صار عادةً من عادات الوهم.

سألت نفسي فجأة:

"هل كانت تحبني فعلًا؟"

ثم أجبت، بلا يقينٍ ولا إنكار:

"ربما كانت تحبّ الفكرة التي كنت أكتبها عنها، لا أنا".

وصمتُّ قليلًا، ثم أضفت:

"أو ربما كنت أنا من أحبّ فكرة الحب، لا هي".

تأملت فنجان القهوة أمامي، البارد كذكرى بعيدة.

المرارة فيه كانت أقل من تلك التي في قلبي.

لم أستطع إنهاءه، كما لم أستطع إنهاءها.

تركت نصفه كما تركت كل شيءٍ بيننا — في المنتصف.

في تلك اللحظة، شعرت أن الخسارة ليست أن تفقد من تحب،

بل أن تكتشف أنك لم تعرف نفسك إلا بعد أن فقدته.

فقدانها لم يكن النهاية، بل البداية التي تأخرت كثيرًا.

طرطوس كانت هادئة تلك الليلة.

الريح القادمة من البحر تمرّ على النوافذ مثل يدٍ تمسح على رأسٍ متعب.

في الشارع البعيد، كان هناك صوت بائعٍ ينادي على السمك الطازج،

وأنا أفكر كم يشبه الحب هذا البحر:

حين يكون هائجًا تخافه، وحين يهدأ تشتاق له.

أغلقت الدفتر، وأطفأت الضوء،

لكن الجملة التي كتبتها بقيت تلمع في رأسي كوميضٍ لا ينطفئ:

"ماذا لو لم أدعُها ذلك اليوم على فنجان قهوة؟"

ربما لم يكن ذلك أسوأ قراراتي،

بل أجملها — لأن بعض الخسارات هي الطريقة الوحيدة لنفهم معنى الوجود.

لم أكن أظن أن الغياب يمكن أن يكون مكانًا.

لكنني عشت عامًا كاملًا في منفى لا يُرى — منفى الكتابة، ومنفى الذاكرة، ومنفى النفس.

كنت أستيقظ كل صباحٍ على نفس المشهد:

المدينة الرمادية، البحر الذي لا يقول شيئًا،

والدفتر المفتوح على آخر ما لم أكتبه.

في البداية، كنت أظن أنني فقدتها،

ثم أدركت لاحقًا أنني فقدتني أنا،

حين حاولت أن أكون الشخص الذي أراد أن يُرضيها.

كنت أكتب عنها، لا لأصفها، بل لأفهم لماذا كانت وجودها يوجعني بهذا الشكل.

لم يكن الحب هو المشكلة، بل المعنى الذي حمّلته له.

أدركت أنني كنت أبحث في وجهها عن نفسي،

كما يبحث الغريق في الماء عن ظله.

***

في طرطوس، حتى الصمت له صوت.

صوت الأمواج وهي تمحو آثار أقدام المارين على الرمل،

وصوت الريح حين تمرّ بين النوافذ القديمة،

وصوتي الداخلي حين يهمس:

"ما جدوى الكتابة إذا لم تُنقذك؟"

كنت أجلس كل مساء في المقهى ذاته، أراقب البحر من خلال زجاجٍ ضبابيّ،

وأحاول أن أكتب.

لكن كلما أمسكت القلم، شعرت أن الكلمات تخرج من مكانٍ لا أعرفه.

كأنها ليست لي، كأنها تخصّ رجلاً آخر كان يكتب قبلي.

رجلًا كان يؤمن أن الكتابة خلاص،

أما أنا، فقد صارت الكتابة منفاي—

مكانًا أهرب إليه لأتجنب النظر في المرآة.

***

في تلك الأيام، تعلمت شيئًا بسيطًا وصعبًا في آنٍ واحد:

أن الألم لا يُشفى بالنسيان، بل بالفهم.

كنت أقرأ كتبي القديمة كما يقرأ أحدهم مذكرات مريضٍ تعافى من حُمّى،

يتأمل هلوساته بشفقةٍ وامتنانٍ معًا.

كل كلمة كتبتها عنها كانت محاولة لفهمي،

وكل سطرٍ كان يذكّرني بأنني لا أملك سوى الكتابة لأتحدث مع نفسي.

كنت أكتب لأتذكّر، ثم أكتب لأنسى، ثم أكتب لأنني لا أستطيع أن أتوقف.

الكتابة لم تكن خيارًا.

كانت مثل التنفّس: لا تحتاج إذنًا، لكنها موجعة حين تدرك أنك وحدك الذي يسمع صوتها.

***

في إحدى الليالي، زارني طيفها.

لم يكن حلمًا ولا ذكرى، بل حضورًا داخليًا، يشبه الحوار الذي لم يُكتمل.

جلست على الكرسي المقابل في خيالي،

كانت ترتدي نفس المعطف الرمادي الذي رأيتها به آخر مرة.

ابتسمت وقالت:

"ما زلت تكتب عني؟"

أجبتها بصمتٍ طويل، ثم قلت:

"أكتب عني فيك".

ضحكت بخفةٍ لا تشبه الأرض.

"وأنا كنت أعيشني فيك".

ثم نهضت ومضت نحو الباب،

لكنني سمعتها تهمس قبل أن تختفي:

"أنت لا تكتب لتتذكرني، بل لتبقى على قيد الألم".

استيقظت بعدها وأنا أتنفس بصعوبة،

كأنها تركت شيئًا من حقيقتها في الهواء.

ربما كانت محقّة.

فأنا لم أكتب عنها حبًّا، بل اعترافًا.

والاعتراف هو أكثر أشكال الكتابة صدقًا وأشدّها قسوة.

***

في الصباح التالي، ذهبت إلى البحر.

جلست على الصخور المقابلة للموج،

ورحت أراقب الأفق حيث يلتقي الزبد بالضوء.

تساءلت:

هل يكتب البحر أم يُمحى؟

هل هو الكاتب أم الورق؟

ربما كنت أطلب من البحر ما لا يقدر عليه:

أن يعلّمني كيف أهدأ دون أن أنسى،

وكيف أقبل النهاية دون أن أكره البداية.

حين عدت إلى البيت، جلست أمام المرآة،

تأملت وجهي كما لو كنت أراه لأول مرة.

في عينيّ لمحت بقايا رجلٍ كان يظن أنه يعرف نفسه،

لكنه كان يعرف فقط كيف يختبئ وراء الحروف.

قلت بصوتٍ خافتٍ كأنني أعتذر لنفسي:

"الكتابة لم تكن وطنًا... كانت منفى،

لكنها المنفى الوحيد الذي يشبهني".

***

تذكرت يوم قالت لي، وهي ترسم دوائر صغيرة بإصبعها على فنجان القهوة:

"أنت تخاف أن تعيش أكثر مما تخاف أن تخسر".

ضحكت حينها وقلت:

"ومن لا يخاف الخسارة؟"

فأجابت بهدوءٍ حزين:

"من لا يملك شيئًا يخسره بعد الآن".

لم أفهمها وقتها.

لكنني اليوم أفهم.

أفهم أن الذين يعيشون بلا خوفٍ من الفقد،

هم أولئك الذين تقبّلوا أن كل شيءٍ عابر—

حتى الألم، حتى الحب، حتى الكتابة.

***

في المساء، عدت إلى دفتري.

كتبت سطرًا واحدًا فقط، ثم توقفت طويلًا عنده:

"كل ما فقدته، كان طريقًا لمعرفة ما لم أكنه بعد".

ثم أغلقت الدفتر ببطء،

وأحسست أنني — للمرة الأولى منذ زمن — لا أريد أن أهرب من نفسي.

المنفى الذي صنعته لنفسي صار بيتًا.

وربما... هذا هو ما يسمّونه **السلام المتأخر**.

لم أفهمها أبدًا تمامًا.

كنت أظنّ أنني أقترب منها كلما كتبت عنها،

لكن كل كلمةٍ كانت تبعدني أكثر،

كأن اللغة نفسها لا تطيق لمس حقيقتها.

قالت لي مرة وهي تنظر إلى البحر:

"أنا لا أبحث عن الحب، أنا أبحث عن مخرج".

حينها ضحكت، ظننتها تمزح.

لكن اليوم أدرك أن تلك الجملة كانت أكثر اعترافاتها صدقًا.

كانت *ابنة الحرب*.

وحين أقول الحرب، لا أعني فقط الانفجارات والرصاص،

بل تلك الحروب الصغيرة التي يخوضها الإنسان داخل بيته،

ضد الخوف، ضد التقاليد، ضد فكرة أنه يجب أن يكون كما يُراد له.

ولدت في مدينةٍ تشبه الخرائط القديمة،

كل شارعٍ فيها يحمل ذكرى، وكل جدارٍ شاهدٌ على غيابٍ ما.

حين كانت طفلة، كانت تستيقظ على أصواتٍ ليست للموسيقى،

وتنام على وعودٍ مؤجلة بأن الغد سيكون أفضل.

لكن الغد لم يأتِ.

جاء فقط صمتٌ طويل، ووجه أبٍ ملوّحٍ بالابتعاد الدائم،

وعيون أمٍّ تبحث عن الأمان في الدعاء.

***

قالت لي ذات مساء:

"الذين انكسرو ولا يؤمنون بالشعر".

ابتسمت وأنا أظنها تسخر،

لكنها لم تكن تمزح.

كانت تحكي سيرتها في جملةٍ واحدة.

لم تكن تكره الشعر،

بل كانت تخاف أن يلهيها الحلم عن النجاة.

كانت تعرف قيمة كل شيء لأنها ذاقت الفقد حتى آخر لقمة.

كانت تحب المال، نعم،

لكن ليس جشعًا، بل خوفًا من الحاجة — من الذاكرة التي تعود بلا إذن..

***

حين أحبّتني، لم تكن تبحث عن رجل.

كانت تبحث عن *نافذة*.

رأت فيّ احتمالاً لحياةٍ مختلفة،

عالمًا يشبه الكتب التي قرأتها خلسةً وهي صغيرة.

لكنها حين عبرت نحوي،

اكتشفت أن الكتّاب بشرٌ أكثر مما ينبغي.

يكتبون عن الحرية، ويخافون ممارستها.

يكتبون عن الحب، ولا يعرفون كيف يعيشونه.

كنت أظنّ نفسي منقذها،

لكنها كانت هي من أنقذتني من رتابتي.

أنا كنت أصف الحياة،

وهي كانت تعيشها.

هي كانت النار،

وأنا كنت الدفء البعيد عنها.

***

كانت تشبه المدن الأوروبية التي حلمت بها ولم تزُرها قط.

نصفها شرقيٌّ في حذَرها،

ونصفها الآخر غربيٌّ في تمرّدها.

نشأت في بيتٍ نصفه من زجاجٍ يرى كل شيء ولا يخجل من شيء،

ونصفه الآخر من حجارةٍ تخاف الضوء.

بينهما كانت هي:

امرأة تتأرجح بين صمت الأمومة وصخب الحرية.

زوجة أبيها الأجنبية كانت أول "صدمة" في حياتها.

تقول لي إنها لم تكن امرأة فقط، بل "فكرة."

فكرة أن العالم واسع،

وأن بإمكانك أن تكون آخر،

حتى لو وُلدت في مكانٍ لا يعترف بالاختلاف.

كانت تراها تشرب النبيذ بثقةٍ في مجلسٍ صامت،

تضحك بصوتٍ عالٍ،

تسافر وحدها دون إذن أحد.

كل ذلك كان يربكها... ويجذبها.

كانت تراها وتقول في سرّها:

"أريد أن أكون مثلها، لكن دون أن أفقد نفسي".

***

حين رقصت أول مرة أمامي،

فهمتُ لماذا كانت تقول:

"الرقص لغة الجسد حين يصمت اللسان".

كانت ترقص كما يصلّي الناس—

بخشوعٍ لا يطلب المغفرة،

بل يطلب الحياة.

لم يكن في رقصها غرور، بل نجاة.

الناس الذين عاشوا طويلاً في الظل لا يسعون إلى الضوء عبثًا،

إنهم فقط يريدون أن يراهم أحد،

أن يقول لهم" *أنا أراك*".

وكانت تقول لي دائمًا:

"الذين لم يُرَوا يومًا... يتعلمون كيف يصنعون الضوء بأيديهم".

***

كانت تسافر كثيرًا.

لم تكن تبحث عن المدن،

بل عن النسخة الجديدة من نفسها في كل مطار.

كل وجهٍ غريبٍ كان مرآةً مؤقتة.

كانت تكتب لي من رحلاتها:

"هنا، في كل مدينة، أرى وجوهًا تشبهني أكثر من وجهي".

وكنت أردّ عليها:

"لكن لا أحد يشبهك في وجعي".

***

في لحظة صدقٍ نادرة، قالت لي:

"أخاف أن تكون الحرية التي أعيشها،

قفصًا جديدًا صممته أنت لي بطريقةٍ أجمل".

تلك الجملة جرحتني أكثر من كل وداعٍ لاحق.

كانت صادقة.

أنا أردتها حرّة... لكن ضمن حدودي أنا.

أردتها أن ترقص... لكن على موسيقاي.

أردتها أن تكون قوية... لكن تحت ظلي.

كنت أكرّر أخطاء الذين علّموها الخوف،

لكن بأدواتٍ أكثر رقة.

***

حين ابتعدت، لم أستطع أن أكرهها.

كنت أفهمها أكثر مما أفهم نفسي.

هي لم تتركني لأنها لم تحبني،

بل لأنها أحبّت الحياة أكثر.

وأنا لم أفقدها،

بل فقدت الدور الذي كنت أظنه خلاصًا لي:

أن أكون من يُنقذ.

***

كتبت عنها بعد ذلك في دفاتري:

"كانت تريد أن تصنع حياةً جديدة،

وأنا كنت أريد أن أصفها فقط.

هي كانت تشتعل، وأنا كنت أتأمل النار".

وحين أغلقت الدفتر، أدركت شيئًا مؤلمًا وجميلًا في الوقت نفسه:

أن بعض النساء لا يحتجن إلى من يحبّهن،

بل إلى من يمنحهن الإذن بالانطلاق—

وحين يفعلن، لا ينظرن خلفهن.

***

الليلة، وأنا أكتب عنها بعد كل هذا الوقت،

أدرك أنني لم أحب امرأةً بقدر ما أحببت التجربة التي مثّلتها.

كانت **فلسفةً تمشي على قدمين،**

سؤالًا مفتوحًا عن الحرية والحب،

وعن المعنى الذي لا يُكتشف إلا بعد الفقد.

لم تكن امرأةً فحسب،

كانت احتمالي الآخر من الوجود.

النسخة التي كنت سأكونها لو لم أخف من الحياة.

لفصل الرابع: الفقد كمرآة

كل شيءٍ بعدها صار أهدأ... وأشدّ صمتًا.

كأن البحر نفسه خفّف صوته احترامًا لغيابها.

حتى المقهى الذي كنا نجلس فيه، صار يفتح أبوابه بتثاؤبٍ بارد،

كأنه فقد زبونًا لا يُعوّض.

كنت أمرّ أمام المكان كل يوم،

لا لأدخل، بل لأتأكد أن الطاولة ما زالت هناك،

كأنني أحتاج إلى شاهدٍ ماديٍّ على أن ما حدث لم يكن حلمًا.

الطاولات تشيخ أيضًا حين تُترك بلا ذاكرة.

والكراسي تحتفظ بانحناءات الغائبين.

ربما كلّ ما حولنا يفتقدنا بطريقته الخاصة،

لكننا لا نملك حاسةً تسمع ذلك الافتقاد.

***

في البداية، قاومت الحنين.

كنت أظنه ضعفًا، شيئًا يجب أن يُقمع،

لكنني اكتشفت لاحقًا أن الحنين ليس رغبة في العودة،

بل رغبة في الفهم.

حين نشتاق، نحن لا نريد استعادة الماضي،

نريد فقط أن نُفكّ شفرته.

كنت أجلس أمام نافذتي في طرطوس،

المدينة التي تعلّمت الصبر من البحر.

أراقب الموج،

وأحاول أن أفهم لماذا يعود دائمًا إلى الشاطئ،

رغم أنه يعرف أنه سيُكسر هناك كل مرة.

ربما لأن العودة جزء من طبيعته.

وربما لأن الفقد — مثل الموج — لا يكتمل إلا بالدوران.

***

في تلك الأيام، صار وجهي مرآةً أرى فيها أكثر مما أحتمل.

كل تجعيدة كانت تذكّرني بأنها كانت هنا ذات يوم،

وأنني تغيّرت بعدها بطريقةٍ لا رجعة فيها.

لم تعد تشغل قلبي، بل وعيي.

صارت فكرةً، سؤالًا مفتوحًا عن ماهيّتي أنا.

هل كنت أحبها؟

نعم.

لكن أكثر من ذلك، كنت أرى فيها صورتي التي كنت أبحث عنها طوال الوقت.

هي لم تكن امرأةً فقط، بل "انعكاسًا."

كنت أرى في عينيها الرجل الذي أريد أن أكونه،

وفي ابتسامتها، الحياة التي لم أعشها.

وحين غابت، أخذت معها ذلك الانعكاس،

وتركتني أمام مرآةٍ فارغةٍ لا تُظهر سوى الحاضر.

***

ذات مساء، كتبت في دفتري:

"نحن لا نفقد الأشخاص، نحن نفقد النسخة التي كنّاها معهم".

قرأت الجملة مرارًا حتى شعرت أنها تنبض.

أحيانًا أشعر أن الكتابة ليست فعلًا نؤديه،

بل كائنًا يكتبنا من الداخل.

كأن الجمل التي نكتبها تعرف أكثر مما نعرف نحن.

***

الفقد يشبه المرآة:

في البداية تكره النظر إليها،

ثم، ببطء، تبدأ ترى نفسك بوضوحٍ مؤلم،

ثم تبتسم أخيرًا، لأنك تفهم.

كنت أظنّ أن الحب تجربة مشتركة،

لكني اكتشفت أنه في جوهره تجربة فردية.

نحن لا نحب الآخر بقدر ما نكتشف من نكون حين نحبّه.

الحبّ مرآة، والفقد هو الضوء الذي يجعلها صافية.

***

بعد أشهرٍ طويلة، وجدت في إحدى حقائبي الصغيرة رسالةً منها.

ورقة مطوية بعناية، رائحتها تشبه أيام الصيف القديمة.

كتبت فيها بخطها المائل:

"لقد تعبت من أن أكون جميلةً في كلماتك فقط،

أريد أن أكون حقيقية في عالمي".

جلست طويلاً أحدّق في الجملة.

كانت شجاعة.

الكتّاب يُحبّون من يلمع في النص،

لكنها أرادت أن تلمع في الواقع.

أرادت أن تكون كما هي، لا كما كتبتها.

وحين لم تجد نفسها في لغتي، غادرت.

***

في إحدى الأمسيات الشتوية، خرجت إلى البحر.

كان المطر يختلط بالملح،

والسماء متعبة مثل قلبي.

جلست على صخرةٍ وقلت لنفسي بصوتٍ مسموع:

"الفقد ليس موتًا، إنه ولادة بطيئة".

لأنك لا تعرف من أنت حتى تخسر ما كنت تظنه جزءًا منك.

كل خسارةٍ تترك وراءها مساحة،

تُسمّى عند البعض وجعًا،

وعندي تُسمّى فهمًا.

***

مرت الأيام، وبدأتُ أرى الجمال في الهدوء،

لا في الامتلاء.

صرت أستيقظ وأقول: "أنا هنا." فقط.

لا وعود، لا ذاكرة.

وأصبحتُ أؤمن أن بعض النهايات ليست قسوة،

بل ترتيبٌ دقيق للمعنى.

***

كتبت في نهاية ذلك العام على الصفحة الأخيرة من دفتري:

"كل ما انتهى، لم ينتهِ.

إنه فقط اكتمل".

ثم وضعت القلم، ونظرت إلى البحر الذي صار صديقي الوحيد.

قلت له:

"يا صديقي الأزرق،

علّمتني أن الفقد لا يُشفى بالهروب منه،

بل بأن أتركه يمرّ منّي حتى النهاية".

***

في تلك الليلة، حلمت بها للمرة الأولى بعد زمنٍ طويل.

كانت تمشي في السوق القديم بطرطوس،

ترتدي فستانًا أبيض بسيطًا وتحمل كيسًا من الفاكهة.

اقتربتُ منها في الحلم وقلت:

"هل ما زلتِ تذكرينني؟"

فابتسمت وقالت:

"أذكرك... كما يتذكر البحر الموجة بعد أن تعود إليه".

استيقظت على دمعةٍ لا أعرف إن كانت من الحنين أم من السلام.

ربما من الاثنين معًا.

***

منذ ذلك الحلم، تغيّر شيءٌ في داخلي.

لم أعد أكتب عنها لأستعيدها،

بل لأحافظ على شكلها في الذاكرة كما كانت: حقيقية، غير مثالية،

إنسانة كانت تبحث عن الحياة كما أبحث أنا الآن عن المعنى.

أصبحت الكتابة مرآتي الجديدة.

وحين نظرت فيها، رأيت وجهًا أكثر هدوءًا،

وجهًا يشبه المصالحة.

***

قلت لنفسي أخيرًا:

"الخسارة ليست ظلاً للحياة،

بل شرطها الأول".

ثم أغلقت دفتري،

ورأيت صورتي في زجاج النافذة،

تنعكس على البحر البعيد.

لم أعد أهرب من نفسي—

كنت أراها بوضوحٍ لأول مرة.

الفصل الخامس: الهدوء بعد الفهم

مرت أربع سنوات منذ ذلك الفنجان الأول.

وسنةٌ كاملة منذ آخر رسالةٍ لم تُجب عليها.

لكن الزمن لم يوقف سؤاله.

كلما فتحت دفتري القديم، كانت الجملة الأولى تلمع هناك،

كما لو أنها تكتب نفسها كل يومٍ من جديد:

"ماذا لو لم أدعُها ذلك اليوم على فنجان قهوة؟"

اليوم فقط، أستطيع أن أجيب.

لو لم أفعل، كنت سأعيش أقلّ.

كنت سأعرف نفسي أقلّ.

كنت سأبقى كما كنت: إنسانًا لم يختبر المعنى.

***

عدت إلى المقهى القديم في طرطوس.

كل شيءٍ فيه تغيّر،

لكن الضوء الذي يتسلّل من بين النوافذ ظلّ هو نفسه.

جلست على الطاولة ذاتها،

المطلة على البحر الذي شهد حيرتي كلها.

طلبت القهوة كما كنت أفعل دائمًا،

لكنني لم أنتظر أحدًا هذه المرة.

كانت الطاولة أمامي فارغة،

إلا من فنجانٍ صغيرٍ ودفترٍ أكلت حوافه الرطوبة.

فتحت الدفتر، فوجدت آخر ما كتبته قبل عام:

"كل ما انتهى قد اكتمل".

ابتسمت بخفوتٍ،

وشعرت لأول مرة أنني لست بحاجةٍ إلى تعديل الجملة.

نعم... اكتمل.

ليس لأن شيئًا عاد،

بل لأنني توقفت عن الانتظار.

***

في الخارج، كان البحر هادئًا.

هدوءٌ غريبٌ، كأنه يتواطأ معي.

أدركت أن البحر يشبه الذاكرة:

لا يمحو، لكنه يهدأ حين تتوقف عن مقاومته.

كنت أنظر إلى الأفق وأفكر كم يشبه الحزن الموجة—

تعود دائمًا، لكنها كل مرةٍ أقل عنفًا،

حتى تصير مجرّد موسيقى ترافقك في الطريق إلى نفسك.

***

أخرجت من جيبي ورقةً قديمة—

رسالة لم أرسلها أبدًا.

كنت كتبتها لها بعد الفراق بأيام،

وخبّأتها بين دفتي كتابٍ عن نيتشه،

كأن الفلاسفة وحدهم من يقدرون على حفظ أسرار العاشقين.

كانت الرسالة تقول:

"لم أخسرك، بل وجدت نفسي من خلالك.

أنتِ لم تكوني خطأ، كنتِ الدرس الذي لا يُنسى.

كل ما فيك كان مرآةً لما لم أكنه بعد،

وكل ما فيّ كان تذكيرًا لكِ بما حاولتِ أن تنسيه".

قرأت الرسالة بهدوءٍ هذه المرة،

ثم أعدتها إلى جيبي دون ألم.

بعض الكلمات تُقال مرةً واحدة لتبقى أبدًا.

***

في المساء، عدت إلى غرفتي التي تطلّ على البحر.

كل شيءٍ كما تركته: الأوراق مبعثرة،

القلم مائل، والنافذة مفتوحة على هواءٍ بارد.

لكن شيئًا ما بدا مختلفًا — أنا.

لم تعد الكتابة وجعًا أفرغه،

بل طريقًا أُكمله.

لم تعد المنفى،

صارت الوطن الذي أعود إليه حين أضيع.

فتحت الصفحة الأولى من روايتي غير المكتملة،

ورأيت الجملة التي كانت بداية كل شيء:

"ماذا لو لم أدعُها ذلك اليوم على فنجان قهوة؟"

ابتسمت، وكتبت أسفلها بخطٍّ جديدٍ وواثق:

"كنت سأكتب هذه القصة على أي حال،

لأن الحكايات التي تُغيّرنا لا تحتاج أشخاصًا لتبدأ،

بل لحظةً واحدة نجرؤ فيها على الاختيار".

***

تذكّرت وجهها.

لكن هذه المرة لم أشعر بالوجع،

بل بالامتنان.

كانت فصلًا كاملاً من حياتي،

لكنني أدرك الآن أن الروايات لا تُقاس بطولها،

بل بالأثر الذي تتركه في القارئ—

أو في الكاتب نفسه.

قلت بصوتٍ خافتٍ كمن يخاطب الغائبين:

"هي كانت حكايةً عن الحرية،

وأنا كنت فصلًا من تمرّدها.

لم أخسرها... لقد خُلقت منها".

***

وقفت أمام النافذة،

طرطوس تحت المطر تبدو كلوحةٍ رماديةٍ يغسلها الضوء ببطء.

في ذلك الرماد، كان هناك شيء يشبه الصفاء.

ذلك الضوء الصغير الذي لا يأتي من الخارج،

بل من الفهم — من القبول،

من السلام المتأخر الذي ينتج حين تتوقف عن الحرب مع نفسك.

جلست وبدأت أكتب.

لكن هذه المرة، لم أكتب عنها،

ولا عن نفسي قبلها.

كنت أكتب عن *الفهم*.

عن أن الحب ليس وعدًا بالبقاء،

بل اعترافًا بأننا التقينا في الزمن الصحيح لنتعلّم،

وافترقنا في الوقت الصحيح لنفهم.

***

حين أنهيت الصفحة الأخيرة،

شعرت أن شيئًا في داخلي أغلق بهدوءٍ جميل.

لا الباب، بل الدائرة.

الدائرة التي بدأت بفنجان قهوة،

وانتهت بسلامٍ في فنجانٍ فارغ.

نظرت إلى الفنجان أمامي—

كان خاليًا،

لكن رائحته لا تزال دافئة، تشبه حضورها.

رفعت الفنجان نحو المقعد المقابل كمن يقدّم نخبًا غائبًا،

وهمست:

"سلامٌ عليكِ في البعد،

وسلامٌ عليّ في الخسارة".

ثم وضعت الفنجان،

وأطفأت الضوء.

وفي العتمة، بقيت جملةٌ واحدة تلمع كوميضٍ لا يُطفأ:

"ماذا لو؟"

لكنها لم تكن ندمًا بعد الآن...

بل **امتنانًا لأنني فعلت**.

***

حقوق النشر والتصميم محفوظة

2025م

ماذا لو؟"
بهذا السؤال تبدأ الرواية، وبه تنتهي..
لكن بين الجملتين تمتد رحلةٌ كاملة من الوعي الوجودي،
تُعيد تعريف الحب والفقد والكتابة كأفعالٍ لا للنجاة، بل للفهم.

البطل — كاتبٌ فقد قدرته على الكتابة بعد تجربة حبٍّ عميقةٍ
مع امرأةٍ تبحث عن الحرية.
حين يلتقيها على فنجان قهوة، لا يدري أنه لا يفتح لقاءً عابرًا،
بل منفىً طويلًا داخل ذاته.

تتحوّل العلاقة بينهما إلى مرآةٍ يتأمّل فيها نفسه:
هي تسعى إلى أن تعيش كما تحبّ،
وهو يحاول أن يفهم كيف يُحبّ دون أن يُقيّد.
وفي المسافة بين الحرية والفهم، يكتشف كلاهما أن الحبّ لا يكتمل إلا بالفقد،
وأن الفقد لا يكون موتًا، بل بدايةً أخرى لوعيٍ جديد.

الرواية تنبض بأسئلةٍ فلسفية حول معنى الخسارة،
وصدق التجربة، وحدود الذات والآخر.
تطرح فكرة أن الإنسان لا يُعرف إلا عبر ما يفقد،
وأن الكتابة ليست مهنة العارفين، بل صلاة التائهين.

في النهاية، لا يصل البطل إلى النسيان..

ArabBook.Com
مكتبة الكتاب العربي